

دور المَثَل في استشارة العمليات العقلية لدى المتعلم

–دراسة تحليلية كيفية للأمثال القرآنية –

د: يزيد حمزاوي
قسم علم النفس
جامعة البليدة 02

I. ملخص

يعرض المقال الحالي نتائج دراسة تحليلية كلفني محتوى أمثال القرآن الكريم، مبينة الأغراض التربوية من ضرب تلك الأمثال للمخاطبين أو المتعلمين، من خلال العديد من الشواهد المصحوبة بجوانب نظرية وشرح واف لها، وقد أثبتت نتائج الدراسة أن الأمثال القرآنية لم تُضرب عبثاً، وإنما هي أسلوب تربوي متميز له مدلولاته التربوية الكثيرة، وعلى رأسها استشارة العمليات العقلية للمتعلمين، لذا جعلها الله أحد آياته الإعجازية والتربوية في القرآن، فكان الهدف منها التعليم والإرشاد والهداية إلى خير الدنيا والآخرة.

Abstract

The current article aims to show what are the educational purposes of the use of parables in the Koran, it will illustrate through a qualitative content analysis study this object, further it will present numerous pattern of these parables from the Koran with ample explanation. The result of the study attest that God does not give us proverbs and parables in the Koran, without intending a specific goal, on contrary these parables contain several educational and pedagogical objectives, especially the role to stimulate diverse cognitive activities, which in the end guide humankind to their wellbeing now and hereafter.

II. مقدمة

يُعد القرآن رسالة ربانية إلى البشر جميعاً فيها الهداية العامة الشاملة، التي تعلم الناس جميعاً سبل الخير وطرق النجاح في الدنيا والآخرة، ويتبين لنا للوهلة الأولى من قراءة القرآن الكريم أنه كتاب تربوي بامتياز، فهو يحمل في طياته غايات وأهداف تربوية يسعى إلى تحقيقها في هذه الحياة وما بعدها، بحيث لو تتبعها البشر وهم المستهدفون جميعاً بهذه التربية القرآنية، فلا شك أنهم يحققون الغاية من خلقهم، كما أن الله مؤسس هذا المنهج التربوي وضع معه العديد من الطرق والأساليب التربوية التي تحقق ذلك الهدف، ومن تلك الأساليب استعمال الأمثال القرآنية الهادفة، التي هي موضوع دراستنا. فما الهدف من استخدام الأمثال القرآنية في التربية؟ وما هي الأغراض التربوية من ذلك الاستخدام؟ للإجابة عن هذه الأسئلة أجرينا دراسة بأسلوب تحليل المحتوى

على القرآن الكريم، وتحديدًا على الأمثال القرآنية، فتوصلنا إلى العديد من الأهداف والأغراض التربوية من استخدام تلك الأمثال في التعليم، ومن أهم تلك الأغراض استخدام الأمثال القرآنية لاستثارة العمليات العقلية المختلفة لدى المخاطب أو المتعلم. فلقد اشتمل القرآن على آيات كريمة تقدر العقل وتشيد به، وتوجه إلى الملاحظة الحسية، أو تدفعه إلى التفكير في حقائق الأمور، أو تستحثه على البحث والاستقصاء، بأسلوب ممتع يستثير الهمم ويستجيش العواطف، بمنهج تحرر العقل من أسر الجمود والتقليد والرضا بإرث السابقين، وبلفت العقل إلى الكون المشاهد ليحول في آفاقه ونواحيه، ملاحظًا متأملًا لما وراءه من سنن مطردة، وما بين أجزائه ونواحيه من روابط وعلل، معتمداً في بحثه وملاحظته على الدليل الصحيح والبرهان الصادق (الخليبي، 1998، 284). فالقرآن بجملة خطابه للعقل يدفعه إلى النمو والنضج ويستحثه على العمل والبحث، فلا شيء أنفع للإنسان من قراءة القرآن بالتدبر والتفكير، وهو أصل صلاحه، فالقرآن أنزل للتدبر والتفكير لا مجرد التلاوة والإعراض عنه، قال تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ محمد 24 (الجزية، ب ت، 187). وسيتم عرض الأغراض التربوية من ضرب المثل القرآني مع شرح نظري لها مصحوبا بأقوال الباحثين في ذلك، ثم إيراد العديد من الشواهد القرآنية على ذلك الغرض، حسب النتائج المتحصلة عليها من تحليل المحتوى:

III. نتائج الدراسة:

1. ضرب المثل لتقريب المعنى للمتعلم

كشفت الدراسة أن ضرب الأمثال في القرآن الكريم يكون لتقريب المعاني للمتعلمين، فالأمثال القرآنية تسيط لما هو معقد بتقديمه بشكل ملموس ومحسوس، وهذا الغرض التربوي، هو من أهم الأغراض التربوية للأمثال القرآنية على الإطلاق لكونه يستغرقها كلها. إن الله سبحانه وتعالى، الذي خلق الإنسان يعلم أن هذا الأخير يملك استعدادات وسمات فكرية محدودة وقدرات عقلية قاصرة، لا تمكنه من فهم وإدراك كثير من الأمور المجردة، كالغيبات والمعقولات والأشياء الوجودانية، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ الملك 14. فالله أعلم بمخلوقاته وأدرى بوجوه الضعف والقوة فيها، لذلك استخدم وسيلة الأمثال كأسلوب لتقريب المعاني الغامضة وتصوير ما هو معقول، ليصير محسوسا ملموسا في متناول إدراك كل إنسان، إمعانا في إقامة الحجة على العباد، والبرهنة على صحة الدين، وتذليلا لطريق التوحيد والعبودية للعباد.

قال الترمذي: إن العباد يحتاجون لضرب الأمثال إذ خفيت عليهم أشياء كثيرة، فالأمثال نموذجات الحكمة لما غاب عن الأسماع والأبصار، لتهدي النفوس بما أدركت عيانا، فمن تدبير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم لحاجتهم إليها، ليعقلوا بما فيدركوا ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة، فمن عقل الأمثال سماه الله تعالى في كتابه علما، لقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبِهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ العنكبوت 43 (ابن الشريف، ب ت، 107 - 108).

وللمثل دلالة الفنية التي تُجسم الأفكار وترسم الصور وتقرّب إلى الفهم ما هو بعيد عنها، يقول الزركشي: ضرب الأمثال يُستفاد منه أمور كثيرة، منها ترتيب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس، بحيث تكون نسبتة للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس (الزركشي، 1980، 1 / 275). فالأمثال القرآنية، كما يرى محمد أبو زهرة، باب من أبواب التشبيه، وهي صور بيانية تتضح منها الحقائق الظاهرة والمعاني الغامضة، كأنها أمور محسوسة مرئية...، وهو إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، وإخراج ما لا تجرّ به العادة إلى ما جرت به العادة، وإخراج ما لا يُعلم بالبديهة إلى ما يُعلم بالبديهة، فالأمثال تُضرب في باب

التشبيه للغائب لتقريب الحقائق، ولتشبيه الغائب غير المحسوس بما يُقرره من القريب المحسوس، ولتوضيح المعاني الكلية بالمشاهدة الجزئية، وبالاستدلال بحال الحاضر على الغائب (أبو زهرة، 1977، 242). وقد ورد في موسوعة "URANTIA" الدينية الأمريكية: أن الأمثال تنطلق من الأشياء المعلومة لتصل وتحيط بما هو مجهول، والأمثال تستخدم المجال المادي الفيزيقي كوسيلة لتقديم ما هو روحي أو ما فوق المادة (URANTIA , 1994, p 1692).

إن الممثل له أو المشبه قد يكون معنى أو ذاتا يجهلها المخاطب، ويتعذر إحضارها إليه لمشاهدتها، وقد يكون في التعريف بها مباشرة بذكر أوصافها إطالة قد تؤدي إلى تشتيت ذهن المخاطب، أو التباس الأمر عليه، فيحسن عند ذلك ضرب المثل له لتقريب المعاني الوجدانية أو الأفكار أو الذوات المحسوسة الغائبة إلى ذهن المخاطب بمثال محسوس له إحساسا ماديا أو إحساسا وجدانيا (الجبوع، 2003، 1/ 156). يقول الأصفهاني: الأمثال والنظائر تبرز خفيات الدقائق وترفع الستار عن الحقائق، وتُري المتخيل في صورة المتحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد (السيوطي، 2003، 2 / 255). والأمثال تُبرز صورة المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس، فيتقبله العقل لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن، إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة للفهم (القطان، 1999، 288). كما أنها تصور المعاني وتصور الأشخاص، فالأشخاص والأعيان أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، بخلاف الأشياء المعقولة فإنها مجردة عن الحس، ولذلك دقت عن الفهم، ولا ينتظم مقصود التشبيه إلا أن يكون المثل المضروب مجريا مسلما عند السامع، وفي ضرب الأمثال من تقرير المقصود ما لا يخفى، إذ الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والشاهد بالغائب، فالمرغب في الإيمان - مثلا - إذا مثل له بالنور تأكد في قلبه المقصود، والمزهد في الكفر إذا مثل له بالظلمة، تأكد قبحه في نفسه (الزركشي، 1980، 1 / 275).

وقد تنبه علماء التربية المسلمون إلى هذا الغرض التربوي فبينوه في دراساتهم، فنجد مثلا سعيد إسماعيل علي، في دراسته عن الأصول الإسلامية للتربية، يقول: إن القرآن يستخدم التشبيه والتمثيل كي يقرب المعاني، ويشير إلى أمور حسية لشرح أفكار مجردة، فالقرآن لا يخاطب فئة المثقفين وحدهم، وإنما يخاطب مختلف الفئات، التي منها أقوام أميون لا تستطيع عقولهم أن تفهم مرة واحدة إلى المعقولات، وإنما لا بد لها من المرور بمرحلة الإدراك الحسي، فيكون بذلك أقرب إلى الأفهام وأرسخ (علي، 1992، 57).

يؤكد الباحثان عبد الغني عبود وحسن إبراهيم العال في دراستهما التربية الإسلامية وتحديات العصر: أن من وسائل التربية الإسلامية التوضيح الحسي للمعاني، وهي الأمثال والأشياء، التي تقوم بدور فعال في التأثير على سلوك الأفراد، وقد أشار القرآن الكريم إلى استخدام هذه الوسيلة من الوسائل التربوية، لما تتضمنه من شواهد وأمثلة وتشبيهات لأمر حسية، هي في الوقت نفسه تحمل معاني تربوية، ونقل الباحثان عن حامد زهران في كتابه "علم النفس النمو" تأكيده على ذلك بقوله: يفيد استخدام هذا الأسلوب التربوي كثيرا في تربية الأطفال، وذلك لأن مدارك الطفل عادة تقف عند الأمور الحسية، فلا يقوى على فهم المعاني الكلية، فضلا عن التأثير بها في مراحل طفولته الأولى، ولذا كان البدء مع الطفل بالمحسوسات، والانتقال منها تدريجيا إلى المعنويات هو ما يحتاجه الطفل لنموه السليم، وهذا الأسلوب يحقق ذلك (عبود والعال، 1990، 495 - 496). وقد ذهب علماء النفس، ومنهم بياجيه Piaget، إلى أن أغلب الأشياء والأمور المجردة والمفاهيم البعيدة عن الحواس، لا يستطيع الأطفال فهمها وإدراكها إلا بعد سن الثانية عشرة (Rondal, 1985, 163).

وقد كانت أمور العقيدة والإيمان والغيبيات، التي مثل الله لها في القرآن، صعبة الإدراك على الجاهليين، فحتى الراشدون من الصحابة وجيل الرسول - عليه الصلاة والسلام - ومن بعدهم، استصعبوا تلك العقائد، كونها كانت غائبة عن حياتهم اليومية، لانغماسهم في عبادات مادية محضة ومحسوسة في الجاهلية، تمثلت في عبادة الأوثان من صخور وخشب وغيرها... مما يدركونه بجواسهم، فلذلك كانوا بحاجة إلى أمثال تُبين لهم المعتقدات البعيدة عن حيز إدراكهم الحسي، كالإيمان بالله وملائكته واليوم

الأخر ونعيم الجنة وعذاب النار، فكانت أغلب الأمثال القرآنية في العقائد والإيمانيات، أما المعاملات والسلوكيات، فقد كثرت أمثالها في السنة النبوية، فالأمثال تلعب دورا هاما في تحويل الغيبيات إلى مشاهد حاضرة أمام العيان، حتى لا يشرد الخيال بعيدا في إدراك الحقائق كما هي. ولهذا نجد أن معظم الأمثال القرآنية مستقاة من بيئة أهل الحجاز والعرب في الجزيرة العربية، لأنه لا يمكن تقريب الغيبيات والمعقولات بالمحسوسات، إذا لم تكن تلك المحسوسات عنصرا موجودا ومعروفا في بيئة المتعلمين والمخاطبين.

وقد عبر عن هذه الحقيقة بوضوح توفيق محمد سبع بقوله: التصوير واقعية ترتبط بذهن العربي وبخياله، فمحال أن تخرج الصور الخيالية، مهما أمعن في التصوير عن هذا النطاق من الحس العربي وتصوره وخياله، وربما وهمه أيضا، كل ذلك يتأزر ليعطي الإيحاء المطلوب والدلالة الرائعة، كما أن هذه الواقعية أيضا تتفق مع البيئة التي يعيش فيها العربي، تستمد منها وتصدر عنها وتعايشها، فالجمال الصفر والعصف المأكول وحبل المسد والسراب الخادع والعهن المنفوش والرماد الذي تذروه الرياح والحمر المستنفرة تفر من قسورة، كل ذلك منتزع من بيئة العربي، وعناصر التشبيه ومسائل التصوير تعين على التأثير والتوضيح، وتعمل عليها في حس العربي ووجدانه (سبع، 1983، 440). فالتمثيل القرآني، كما سنراه في الشواهد التي نسوقها فيما بعد، كأتمها آلة تصوير فوتوغرافي تضع الصورة بكافة ألوانها وأبعادها أمام المتعلم، الذي ينظر إلى تلك الصورة فيدرك جميع تفاصيلها، مما لا يترك بعده مجالاً للتأويل والجهل والشك والإنكار.

ويصف سيد قطب هذه الصورة التمثيلية بلغته الأدبية: التصوير هو الأداة المفضلة في الأسلوب القرآني، فهو يعبر بالصورة المحسوسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيرونها شاخصة حاضرة، فيها الحياة والحركة، فإذا أضيف إليها الحوار فقد استعدت لها كل عناصر التخيل، فما يكاد يبدأ العرض حتى يُجِيل المستمعين وينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأولى، الذي وقعت فيه أو ستقع، حيث تتوالى المناظر وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أن هذا كلام يُتلى ومثل يُضرب (قطب، 1983، 22).

وضرب المثل لتقريب المعنى غرض تربوي يتوافق مع ما توصلت إليه الدراسات العلمية والبحوث الموضوعية عن طرق ووسائل وأساليب التربية والتعليم، قديما وحديثا، وكنا قد ذكرنا سلفا رأي بياحيه في هذا الباب، ومن العلماء القدماء ابن خلدون الذي ركز في طرق التدريس على ضرب الأمثلة التوجيهية، حيث كان يعتقد: أنه يجب الاعتماد في بدايات طلب العلم على الأمثلة الحسية، والانتقال من المحسوس إلى المجرد، ذلك أن المبتدئ في أول أمره ضعيف الفهم قليل الإدراك، ولا يعينه على فهم ما يُلقى عليه إلا الأمثلة الحسية (عبد الدائم، 1986، 248). ويوافق على ذلك المري الإسلامي بدر الدين ابن جماعة في تذكرة السامع والمتكلم، الذي يوجه المعلم إلى أنه: يجب عليه تصوير المسائل ثم توضيحها بالأمثلة الحسية لمن لم يتأهل لفهم مأخذها ودليلها (بوعنان، 2002، 89).

وتبنى المربون الغربيون من أصحاب النظريات الحديثة وسيلة التمثيل في التعليم، نجد مثلا روسو Rousseau في كتابه "إميل" يدعو إلى تقديم المعقولات عبر المحسوسات في التربية، ومن فوائد ذلك أن هذه الطريقة تُدرب حواس الطفل وتنميها، فالواجب، كما يقول، تعليم التلميذ كيف يُحس، فأولى الملكات التي تتكون لدينا وتنمو هي الحواس (عبد الدائم، 1986، 385 - 386). وقد ورد في طريقة دكرولي Decroly البداغوجية، كما تشرحتها إميلي هاميد Hamaide أنه يجب إعطاء الطفل الأفكار المجردة بطريقة محسوسة قدر المستطاع (عبد الدائم، 1986، 560). لذا لا نستغرب أن مناهج التعليم الفرنسية أدخلت تدريس الأمثال منذ سنوات التعليم الأولى، فالتعليم الابتدائي الفرنسي جعل من أهدافه تعليم التلاميذ استخدام الأمثال والتشبيه، وتُدرس

الأمثال والأشباه في إطار مناهج تطبيقية، تُسمى باللغة الفرنسية *pédagogie pratique des comparaisons* ، وقد ورد في وصف هذه المناهج أن من الأهداف الأساسية للتعليم الابتدائي الفرنسي، التعرف على التشبيه والأمثال واستخدامها وابتكارها، ويستمر ذلك طيلة المرحلة الابتدائية، ثم ينتقل التعليم إلى الأمثال الأكثر تركيباً وتعقيداً (Marchand, 1999, 65 et 173).

ويعزز رأي المرين ما توصل إليه علماء النفس الاتصالي، ومنهم فرنسيس برغن Francis Berguin حيث يشير في كتابه "practical communication": أن الرسالة الاتصالية الناجحة يجب أن تتمتع بخاصية، وهي أن تكون محسوسة أو حسية أو ملموسة *concrete*، فكلمات الرسالة المحسوسة أكثر تحديداً للمعنى من الكلمات المجردة *abstract* لكونها تثير الحواس الإنسانية، كالسمع والبصر والشم والذوق واللمس، والكلمات المحسوسة تزود المستقبل (قارئ القرآن في حالتنا) بصورة ذهنية للأشياء *image* ترسخ في ذهنه، بعكس الكلمات المجردة التي لا تسعفه في تكوين صورة ذهنية راسخة، فالكلمات المحسوسة تساعد المستقبل على تخيل الرسالة وتذكر موضوعها والتفاعل معها بشكل قوي ومؤثر (أبو عرقوب، 1993، 161). ويقول يان لولي Yann Le Lay: إن المثل والتمثيل هو تركيب لا يلغي الممثل له، وإنما يعززه ويقويه ليقدم شيئاً ملموساً، ويجعل من الممثل له أكثر واقعية، فالفكرة المجردة والمثل الملموس يتكاملان ويردفاً بعضهما البعض، ويظهر هذا جلياً في الكتابة الراقية والجميلة والمقنعة (Le Lay, 1997, 139).

ووفق نتائج الدراسة الحالية نجد أن الله تعالى استخدم في الأمثال القرآنية لتقريب المعنى للمتعلمين نوعين من المدركات: أولها المدركات الحسية وهي الأكثر في الأمثال، وهي كل مشبه به تدركه الحواس الخمس، من جماد وإنسان وحيوان وغيره، واستخدام بنسبة قليلة جداً المدركات المعنوية، وهي كل مشبه به لا تدركه الحواس، وإنما يُدرك معنويًا بالعقل والإحساس الداخلي، كالمدركات الفكرية والوجدانية والعاطفية، وهو ما يتطابق مع دراسة الميداني (الميداني، 1980، 28).

● بعض الشواهد القرآنية من الأمثال على هذا الغرض التربوي:

الشاهد الأول: ﴿ وَخَوْزٍ عَيْنٌ، كَأَمْثَالِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ الواقعة 22-23. يحدثنا الله تبارك وتعالى عن الخور العين، وهي ذوات صور يمكن أن تُدرك بالحس الظاهر في الجنة، ولكنهن الآن مجهولات لنا، بعيدات عن إدراكنا الحسي وعن تصوراتنا الخيالية، فيقرب الله لنا طرفاً من صور لون بشرتهن ونعومتها وجمالها بتمثيلها باللؤلؤ المكنون، وهو شيء معروف عندنا في هذه الدنيا، ومعلوم جماله، وسلبه للعقول من شدة روعته.

الشاهد الثاني: ﴿ خَشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ القمر 7. هذا الشاهد مثال تقريبي لما يجري من أحداث عند قيام الساعة، وتغير نظام الكون القائم الآن، فمشاهد يوم القيامة تختلف عما نشاهده ونعرفه اليوم، لذلك يمثل الله لنا خروج الناس يوم القيامة من قبورهم بالجراد المنتشر، في كثرتهم وتجمعهم وتتابعهم في كل مكان.

الشاهد الثالث: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ القارة 5، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ المعارج 8. يضرب الله مثلاً لما سيحدث للجبال يوم القيامة، إذ ستفقد صخورها قوامها المتماسك فتصبح هشّة منتفخة، وهي صورة بعيدة عن إدراكنا الآن، فيُمثل لها بالصوف المنفوش، وهو الصوف المندوف، الذي تفرق أجزاءه بعضه عن بعض. كما أن السماء يوم القيامة تذوب، فمثل لتلك الصورة البعيدة عن العقول بالمهل، وهو النحاس المذاب، الذي تعرفه العرب عند صناعة الحلل والأواني والأسلحة النحاسية.

الشاهد الرابع: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُدْرِي، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ، تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْفَعٍ ﴾ القمر 18-20. وعن ثمود قال الله تعالى: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ الحاقة 7. فقوم عاد وثمود عاشوا قبلنا ولم نشاهد بجواسنا كيف عاقبهم الله، فضرب الله لنا هذين المثلين ليقرب إلينا نوع العذاب الذي عُوقبوا به، فيمثل للناس الذين تنزعهم الريح وترمي بهم في كل مكان، بأصول النخل

المنخلع من الأرض والمتطير في كل مكان، ويصور أولئك الناس بعد أن بليت أجوافهم بصورة أعجاز النخل الحاوية الفارغة الجوفاء، فأحضر الله تعالى بالمثلين صور الزمن الماضي، كأن ذلك العقاب الغابر يجري اليوم أمام أعيننا.

الشاهد الخامس: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطِّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ الحج 31. فالشرك بالله أمر معنوي، والمشرك عندما يقترف شركه يسقط من المرتبة العالية التي وضعها الله للمؤمنين، فبعيش هذا المشرك في اضطراب وقلق وعدم طمأنينة، فيمثل الله لهذه الحالة بمن يخر من السماء فتخطفه الطير، وهو تصوير لحالة التمزق النفسي الذي يعتري المشرك، فهو تقرب لصورة الحالة النفسية للمشرك، الذي هو أشبه بمن يقع من السماء فتخطفه الطير أو تهوي الريح به في مكان سحيق، وهي كناية على أن المؤمن يرفعه إلى المكانة العالية في الجنة بدل قعر جهنم السحيق المعد للكافرين.

الشاهد السادس: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام 125. يمثل الله ضيق الصدر وهو أمر معنوي، الذي يصيب الكفار حينما يُدعون إلى الإسلام، بضيق الصدر الذي يحصل للمتسلق إلى الأعلى في الجبال أو الطائرة، إذ تتناقص كمية الأكسجين اللازمة والكافية للتنفس، فضيق صدر المتسلق يكاد يخنقه، كذلك الكافر الذي تحجزه أهواءه وبدعه وكفره عن انشراح الصدر، مما يُسبب له ضيق الصدر.

الشاهد السابع: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بَرِّهْمٍ أَغْمَاهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ بِمَا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ إبراهيم 18. يصور الله في هذا المثل أعمال الكفار في مقاومة رسل الله ومحاربة دينه بالرماد المتجمع في مكان ما، لكن لا تماسك بين ذراته، وهو خفيف جدا، فاشتدت به الريح في يوم عاصف فنسفت ذلك الرمد وبددته في كل مكان، حتى لم يعد له قوام ووجود حقيقي، كذلك أعمال الكافرين في مواجهة الرسول . صلى الله عليه وسلم . وأولياء الله، فهي كالرماد متفرقة مشتتة في كل مكان، ويوم القيامة يجعل تلك الأعمال هباء منثورا، وهي كناية على أن أعمال الكافرين لا تقوى على مقاومة قدرة الله وقوته.

الشاهد الثامن: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا إِذَا نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ الكهف 45. يصور الله تعالى زوال الدنيا ونعيمها وعدم خلودها، كي لا يغتر بها المغترون والتمسكون بها، بالماء الذي ينزل من السماء فيختلط بنبات الأرض فتتسفه الرياح وتطيره، وهذا مثل على أن الدنيا زائلة مثلما يزول النبات والمطر وغيرها من مخلوقات الله في الأرض، مما لا يدع مجالاً للاغترار بشيء يزول بعد حين. وبشبهه هذا المثل قوله تعالى في مثل آخر: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ الحديد 20.

الشاهد التاسع: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ النور 39. يصور الله لنا أعمال أهل الكفر، والتي يُظن أنها تفيدهم، بأنها مثل السراب في صحراء قاحلة، تظهر من بعيد للظمان ماء ترويه، لكنه إذا اقترب منها لم يجدها شيئا، فتخدعه من بعيد وعند الحاجة تنكشف له الحقيقة، بأنها مجرد سراب لا يُسمن ولا يغني من جوع، كذلك الكفار يظنون أن أعمالهم في الدنيا تغنيهم شيئا ساعة القيامة، لكن هذا الزعم الخادع ينكشف لهم في ذلك اليوم.

الشاهد العاشر: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ، أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ، لَا جَزْمَ لَنَا فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْتَبُوا إِلَىٰ

رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿19-24﴾ هود في النص تمثيل الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله بالأعمى والأصم، وتمثيل الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالبصير والسميع، ووجه الشبه أن الكافرين صرفوا أبصارهم عن رؤية آيات الله، وتراكت عليها غشاوة أهوائهم وشهواتهم ورغبات متاع الحياة الدنيا، وصرفوا أسماعهم عن سماع وتفهم كلام الله وكلام رسوله، وتراكت على أسماعهم غشاوة الأهواء والشهوات فكانوا كمن هو مصاب بالعمى والصمم، أما الذين آمنوا فقد رأوا وأبصروا آيات الله، فانتمتعوا بما وآمنوا برحمته، وتدبروا كلام الله ورسوله، ففهموا واستجابوا، فمثلهم الله بالبصير حديد البصر وبالسميع شديد السمع.

2. ضرب المثل لإقناع المتعلم واستثارة تفكيره

وجدت الدراسة الحالية كذلك أن من الأغراض التربوية للأمثال في القرآن: شحذ الذهن واستثارة كافة العمليات العقلية، ومنها التفكير والقياس والتذكر والتخيل والتأمل...، وفي هذا المبحث بعض تلك العمليات التي يثيرها المثل القرآني قصد الإقناع برسالة الإسلام.

2.1 استثارة التفكير بالتأمل

لاشك أن القرآن بكامله دعوة للتفكير، وآياته تخاطب العقل وتستثير فيه حب المعرفة، وتسهل له دروب الوصول إليها، بما خلق الله من استعدادات وملكات وقدرات عقلية داخل الإنسان. والأمثال القرآنية أسلوب رائد وقوي في استثارة العقل الإنساني، بما في هذا الأسلوب من تشبيه وقياس وتحريك للفكر وإعماله، فالأمثال القرآنية تبعث على التأمل والتفكير في معاني الأمثال ومراميها وأغراضها، حتى تُفهم على حقيقتها، فالقرآن يستثير عقل الإنسان فارضاً عليه تنمية حواسه وفق منهج، ونبذ كل ما يؤدي إلى ركود ذهني أو شلل لحركة الفكر (المزيدي، 2005، 1).

فالآيات القرآنية بمجملها تحت الإنسان على التفكير والتدبر العميق والمتبصر المسؤول عن ما يحيط به، وفي ذات الوقت ينهى عن التقليد، ويذم الذين لا يستخدمون عقولهم، لأن في التقليد تعطيلاً لقدرة الإنسان العقلية، التي أنعم الله بها عليه، لهذا نجد أن حملة القرآن على مثل هؤلاء شديدة حيث وصفهم بأنهم بهائم. قال الله في مثل قرآني واصفاً إياهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ، وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الدَّبْيِ يُنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ البقرة 170-171 (المشوخي، 1985، 20).

والأمثال القرآنية دلائل عقلية للإيمان والتوحيد، فالإيمان في الإسلام ليس رموزاً باهتة لا يعلم لها معنى ولا حكمة، وليس قضايا ساقطة يأبأها العقل الصحيح، وتعاليم مزورة يرفضها العلم ويثبت بطلانها، بل الإيمان يتخذ من العقل وسيلة للعروج إليه، وأساساً لمبادئه وأصوله، ويساير فطرة العقل ورغبته في التأمل واستكشاف العلة والأسباب، فحينما دعا الإسلام الناس إلى الإيمان بالله وبِعظيم صفاته، وجههم إلى بلوغه عن طريق إعمال العقل، واستخدام أدوات المعرفة التي لديه في النظر والتفكير، في دلائل قدرة الله وعلمه وحكمته وعدله وسائر صفاته الدالة على وجوده، وأرشدهم إلى أن هذه الدلائل ماثورة في السماء والأرض وفي أنفسهم (الميداني، 1983، 329).

كما أن الأمثال القرآنية أدلة يسوقها القرآن الكريم ليثبت بوضوح أن الفكر وسيلة مثلى إلى معرفة الله بآثاره الدالة عليه، فالعقلاء العالمون هم الذين يصلون بصيرتهم إلى هذه المعرفة، عندئذ يحشونه حق خشيتهم ويتعظون بالحوادث والأمثال ويتنفعون بما فيها من عبر وأحكام، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاصِرِيهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ العنكبوت 43. فلا خوف على الإيمان من البحث العلمي، فالحقيقة لا تخشى البحث، والإسلام على يقين من أن البحث العلمي السليم والتأمل السديد لا بد من أن يوصلا أصحابهما إلى نفس النتائج التي قررها (الخليبي، 1998، 267).

إن المتأمل في كل مثل قرآني يكشف هذا الغرض التربوي من ضربها، وهو استثارة التفكير وتنشيط العمليات العقلية المختلفة، والله - سبحانه وتعالى - يؤكد على هذا الغرض التربوي في العديد من الآيات التي تتضمن الأمثال. والمثل القرآني يخاطب به الله الأذكياء وأهل التأمل والتفكير، ويحرك طاقاتهم الفكرية ويلفت أنظارهم بقوة ويدفعهم إلى توجيه عنايتهم لإدراك المراد بالتأمل وإمعان النظر، ونظيره من آداب وتراث الناس ما يضره من أمثال الأحاجي والألغاز ليستخرج الأذكياء المراد منها، ولقياس مقدار ذكاء المخاطبين أو سرعة انتباههم (الميداني، 1980، 76 - 77).

جاء في موسوعة Urantia الدينية: إن المثل يستدعي مستويات مختلفة من التفكير والتأمل ويستثير التخيل والتفكير النقدي، كما أنه يساعد على تعلم حقائق جديدة، وإدخال أفكار جديدة في العقل، كما أن رد الحقائق التي تتضمنها الأمثال فعل يحتاج إلى ذكاء ووعي، كما أن الحقائق التي تتضمنها الأمثال يصعب ردها، لأنها تتميز بالمنطقية والجدائية (Urantia, 1994, p. 1693). فالأمثال القرآنية مثيرات تتحدى العقل وتدفعه إلى التأمل، وتستدعي استخدام العمليات العقلية كافة للوصول إلى ذروتها وهي التفكير. كما أن التفكير عملية معرفية معقدة ونشاط داخلي، يقتضي معالجة المعلومات التي يتعامل معها المتعلم، وبالتفكير يكتسب المعرفة والخبرة ويدرك العلاقات بين عناصرها، ويطبقها في المواقف الجديدة، ويحلل عناصر الخبرة ويركبها ويقومها، وبالتفكير يكتشف المتعلم طرقاً جديدة لحل المشكلات التي يواجهها (التل، 2005، 247).

ويقتضي التعلم بالتفكير دوام الحوار وطرح الأسئلة، وهذا بالضبط ما جاءت به الأمثال القرآنية، التي أكثرت من الأسئلة والاستفهام، وكذلك تلك القصص التمثيلية التي رواها الله على شكل حوارات، لذلك فإن ضرب الأمثال في التعليم يُعد من الطرق التعليمية الناجحة، في جذب انتباه المتعلمين وتوجيههم إلى مادة التعلم وإدراك العلاقات (التل، 2005، 297). وقد صيغت العديد من الأمثال القرآنية بالأسلوب الاستفهامي، ولما كان للأمثال ميزة حث العقل على التدبر والتفكير، فقد استخدمها الله في إقامة الحجة والبرهان على صحة معتقدات الإسلام والإيمان، فجعلها الله دلائل وبراهين عقلية منطقية على وحدانيته وتفرد بالعبودية المطلقة، كونها من أبحح الأساليب الإقناعية. ويلاحظ الباحث في الأمثال القرآنية أن أغلبها ورد لإقامة الحجة في قضايا الاعتقاد، فمن أغراض أمثال القرآن الكريم إقامة الدليل القاطع والبرهان على القضية المراد طرحها (الجريوع، 2003، 1 / 78).

وكل تلك الأمثال تُسهل للناس التفكير والتعقل والتذكر، بما تشتمل عليه من مقايسة الأمور، وإلحاق النظير بنظيره والمساواة بين المتشابهات في الأحكام. ويؤكد الغامدي على أن من الأغراض التربوية للمثل أنه يلفت الانتباه ويشحذ الذهن لتأمله وتدبره، لأن المثل فيه تصوير وتشبيه ومقارنة وموازنة تجعل الذهن يتحفز والعقل يتدبر، فالإنسان عبر الأمثال يعيد النظر إلى القضايا، ويعيد التفكير في المسائل حتى يدركها، بعكس الكلام المسترسل الذي لا يجذب العقول ولا يلفت الأنظار، وإنما هو مجرد وعظ وإلقاء (الغامدي، 1417 هـ، 8). والإنسان، خصوصاً صاحب الثقافة العالية أو من يملك رصيذاً معرفياً كبيراً، ينأى عادة عن الجانب الوعظي ولا يؤثر فيه الكلام الوجداني العاطفي، بينما يؤثر فيه المثل، لأن الأمثال القرآنية أوقع في النفس وأبلغ في الوعظ وأشد في الزجر وأقوى في الإقناع، والباحث في التراث التربوي الإسلامي يجد إلى جانب استخدام القرآن الكريم والحديث الشريف للأمثال والأشبه كطريقة تربوية وتعليمية، اهتمام المرين المسلمين بذلك، كما بين ابن جماعة في تذكرة السامع والمتكلم (عبود، 1990، 495).

● بعض الشواهد من القرآن الدالة على هذا الغرض التربوي

وهو شحذ الذهن واستثارة العمليات العقلية المختلفة، كالتفكير والتخيل والقياس والتذكر والاستنباط وغيرها، بهدف إقامة الحجة والبرهان والإقناع.

الشاهد الأول: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضُرِبَ لِنَاسٍ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الحشر 21. يبين الله تعالى الغرض من ضرب الأمثال وهو التفكير والتدبر، فإن تصدع الجبال خشية من الله، آية من آيات الله، تستدعي كثيرا من التفكير، وما يفقهها إلا من أوتي العقل والقدرة على التدبر العميق.

الشاهد الثاني: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضُرِبَ لِنَاسٍ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ العنكبوت 41 - 43. هذا من أعظم الأمثال القرآنية الدافعة إلى التأمل والتفكير، ومثل العنكبوت يتحدى به الله العلماء، فيقول لو كانوا يعلمون ما في هذا المثل من علم لآمنوا بالله سبحانه وتعالى، ثم يقول الله تعالى: إن هذه الأمثال ما يعقلها إلا العالمون، لذلك ثبت عن بعض السلف الصالح أنه كلما قرأ مثلا ولم يفهمه بكى، وقال إنني من الجاهلين ولست من العالمين (الخطيب، 2000، 13). وإن هذا المثل الذي يتحدى العقول، هو من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ويبين لنا فهد عامر الأحمد في مقاله العلمي: أن من ناحية الإعجاز المادي نلاحظ أن كلمة العنكبوت وردت في الآية الكريمة بصيغة التأنيث لا التذكير "اتخذت بيتا"، فعلماء الحشرات لم يكتشفوا إلا مؤخرا أن أنثى العنكبوت، هي من يقوم بفرض المادة الحريية وجدل الخيوط وغزل الشبكة، وكلمة اتخذت لا تشير فقط إلى أنثى العنكبوت، بل وإلى وجود عملية بناء حقيقية تقوم بها بغرض السكن والتفريخ، وفي المقابل يقتصر دور الذكر على التلقيح والارتقاء عند قديمي الأنثى كي تأكله، بعد انتهاء عملية التزاوج، وهذا المصير المخيف جعل بعض المفسرين يرون أن المقصود من المثل ليس وهن خيوط العنكبوت القوية جدا من الناحية العلمية، ولكن المقصود هو وهن بيت العنكبوت من الناحية الاجتماعية والأخلاقية، وبالمقارنة مع علم الحشرات يُعد بيت العنكبوت من أوهى البيوت من الناحية الأسرية وأكثرها أنانية وشراسة، فالأنثى تأكل الذكر بعد التلقيح وتأكل أبناءها بعد خروجهم من البويضة، إلا من نجا وفرز، وهذا البيت العنكبوتي يشبه في وهنه وهن الروابط والأوشاح والصلوات، التي تربط الكفار بأهنتهم الوثنية المزيفة، والتي ستنقطع بينهم في الدنيا قبل الآخرة (الأحمدي، 2005، 1 - 2).

الشاهد الثالث: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسئُبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ الحج 73. هذا من الأمثال القرآنية، التي تتحدى عقول الكفار والملحددين، بما لله من قوة وقدرة على الخلق، لا يملكها من دونه من الآلهة الباطلة، فالذين من دونه من الآلهة أضعف من أن يقدروا على خلق أضعف المخلوقات في هذا الكون، وهو الذباب، فمن باب أولى هم أعجز عن خلق ما هو أعظم من الذباب كالسماوات والأرض والشمس والقمر والكواكب... وغيرها، فالله يخاطب عقول الكفار والملحددين ويُقيم عليهم الحجة والبرهان، وهو مثل يدعوهم إلى التفكير المنطقي الرصين والتدبر في حال ضعفهم وضعف ما يعبدونه من دون الله. وفي مطلع المثل فائدة أخرى، فقد نبه الله الكفار وغيرهم أنه سيضرب لهم مثلا، فدعاهم إلى الاستماع لمثله، والاستماع أحد أهم الوسائل لإدراك المعرفة حسيًا ثم معنويًا، فكأن الله بدعوته للاستماع يهيم الجو والمناخ الملائم للتعلم، حتى يشد الانتباه ويثير الحواس، التي تعين على تلقي العلم الذي يصحبه الفهم عن الله ثم التطبيق، وعلماء الاتصال والتربية يدركون ما للاستماع والإنصات الفعال، من أهمية في إدراك الرسائل والانتباه في تلقي المعلومة واستيعابها.

الشاهد الرابع: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ النحل 76. هذا مثل آخر يحرك الله به التفكير، يقول القرطبي: هذا مثل ضربه الله تعالى لنفسه وللوثن المعبود من دون الله، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو الوثن، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى، والأبكم هو الذي وُلد أحرص فلا يفهم ولا يفهم، وهو ثقيل على من يلي أمره ويعيله، فهل يستوي مع من ينطق ويتكلم، ذو الكفاية والرشد، ينفع الناس ويحثهم على العدل الشامل؟ (أبو النيل، 1995، 6).

الشاهد الخامس: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام 125. إن علماء التفسير واللغة من السلف الصالح، كلهم فسروا ضيق الصدر هنا، بسبب علم الإنسان أنه لا يستطيع الصعود إلى السماء، منهم ابن مسعود وابن عباس والنحاس والقرطبي وغيرهم (أبو النيل، 1995، 7). بينما العلماء المعاصرون يقولون إن هذا المثل من الإعجاز العلمي في القرآن، يخاطب به أولي الألباب من العلماء، ويفسرون ذلك بأن المثل يُشبه الكافر الذي يضيق صدره بالإنسان الذي يصعد إلى قمم الجبال العالية أو إلى الأجواء العالية من طبقات الجو، حيث يقل الأكسجين مما يؤثر في عملية التنفس، ويسبب ضيق في الصدر، وهذا إعجاز علمي آخر من إعجاز القرآن، لكونه حقيقية لم تُكتشف إلا مؤخرًا، والمثل كناية عن ضيق صدور الكفار المليئة قلوبهم بالجهل وظلمات الكفر، التي تبعث على الخوف والقلق وعدم الارتياح، بعكس المؤمنين المنشرحة صدورهم المليئة بنور الإيمان، الذي يبعث على الارتياح (الزنداني، 1989).

الشاهد السادس: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ البقرة 26. كان الله تعالى يضرب الأمثال للكفار من الذباب والعنكبوت والكلب والحمار...، فقال الكفار إن الإله الحق لا يجوز أن ينزل من مستواه، إلى حد ضرب الأمثال بهذه الحيوانات والحشرات الحقيرة والتافهة، وقالوا لا يليق بهذه المحقرات أن ترد في كلام البلغاء فضلًا عن كلام الله، فجعلوا ذلك سببًا للظعن في صحة الدين. قال محمود ابن الشريف: رد الله على هؤلاء الكفار بأن الله من أجل إقناع الناس وبيان الحجة وإقامة الدليل، على صحة الدين وبطلان ما عليه الكفار، يضرب مثلًا بالبعوضة وغيرها، وإن المؤمنين العالمين يفهمون مغزى الأمثال فيؤمنون بالله، أما الفاسقون فإنهم يصدون ويعزفون عن تدبر الأمثال فيبقون على كفرهم (ابن الشريف، ب ت، 11). ويعلق حبكة الميداني على هذا المثل بقوله: إن هذه المخلوقات التي يحتقرها الناس آيات مدهشات على عظمة الخالق وحكمته، وقد ارتقت هذه المخلوقات في نظر العلوم الحديثة إلى مستوى الدراسات المستفيضة المضنية الجادة، وكتب فيها العلماء كتبًا كثيرة، سجلوا فيها خصائص هذه المخلوقات وصفاتها وأنواع سلوكها، فلم يعد التمثيل بما لدى كبار علماء الكون أمرًا مستنكرًا ولا مستهجنًا، بل مدعاة لتوجيه الاهتمام بشأنها ودراسة أنواعها بإمعان، وقد كان استنكار الذين كفروا للتمثيل بما ناشئا عن جهل وتجاهل (الميداني، 1980، 24).

الشاهد السابع: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِمَا وَلَكِنَّا أَخْلَدْنَا إِلَى الْأَرْضِ وَآتَبَعَهُ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْضُ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الأعراف 176. هذه من الأمثال التي تبعث على التفكير، وقد جاء في آخر الآية أمر الله لنبيه محمد بقص القصص لعل الكفار يتفكرون في هذه الأمثال، ليدركوا ما فيها من معاني والغاز وعبر ليؤمنوا. وجاء عن علماء الحيوان أن وصف المثل للكلب وهو يلهث، هي ظاهرة علمية بيولوجية، يمكن رؤيتها بالعين المجردة، لكن تفسيرها لا يتم إلا بالأدوات العلمية التقنية، وقد شرح علماء الحيوان أن الكلب لا يملك بعض الغدد التي تحافظ على مستوى درجة حرارة جسمه الداخلية، ولهذا فحرارته تعمل على الصعود دائمًا، لذا فإن الكلب يستعير باللهث، بإخراج اللسان لإدخال البرودة إلى الجسم، التي تعمل على توازن الحرارة داخله، وبقائها في المستوى الطبيعي، وهذا لم يكتشفه العلم إلا مؤخرًا (الزنداني، 1989). ودعوة الله إلى التفكير في هذا المثل هو دعوة للتفكير في هذه الظاهرة، التي تدعو إلى أعمال العقل، وهو لا شك من الأغراض التربوية للأمثال القرآنية.

الشاهد الثامن: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٌ بِقِيَعَةٍ يَخْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ كظلماتٍ في بحرٍ لججٍ يعشاه مؤججٌ من فوقه مؤججٌ من فوقه سحابٌ ظلّمتٌ بعضها فوق بعضٍ إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نورٍ﴾ النور 39-40. في الآية مثلاً، وقد جاءت الآيتان

في سياق عشرات الآيات، التي وردت قبلها وبعدها، يذكر فيها الله سبحانه قدرته على الخلق وعظمة مخلوقاته، ليبين للناس لعلمهم يتذكرون ويتدبرون في كل تلك الآيات الباهرات، والمخلوقات العظيمة، فيقفوا إجلالا لخالقها، إنه يخاطب العقل، وخصوصا العقل العلمي، الذي يدم النظر والتأمل في كل ما تراه عينه، فهو دائما يبحث عن سر هذه المخلوقات وما وراءها من قوة رابانية. وفي المثل إعجاز علمي آخر، فالله تعالى يذكر ثلاث ظلمات: الظلمة الأولى هي ظلمة السحاب والثانية ظلمة الأمواج، وهناك ظلمة ثالثة تحت مستوى معين من ماء البحر، لا يكاد الإنسان يرى يده فيها لغياب النور وانعدام الرؤية، لذا فالغطاسون لا يمكنهم رؤية شيء إلا بالإضاءة الاصطناعية، وهذه الظلمة الثالثة لم يكتشفها علماء البحار إلا في الآونة الأخيرة، بعد تقدم تكنولوجيا الغطس، وهي تكنولوجيا لم تكن موجودة عند نزول القرآن (الزنداني، 1989). مما يعني أنها إعجاز يخاطب عقول العلماء في هذا العصر، ويستثير عملياتهم العقلية التي تقنعهم بصدق الإسلام.

الشاهد التاسع: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ الأنبياء 104. كان الكفار يتساءلون مستنكرين البعث والنشور، ورافضين لفكرة إعادة إحياء الخلق بعد الموت يوم القيامة، فقد زعموا أن الموت هو آخر المطاف، والدهر كفيل بأن يمحو كل موجود، دون عودة، وتساءلوا جدلا كيف يمكن أن تعاد الحياة للعظام وهي رميم؟ فرد هذا المثل على هذا التفكير السقيم بقياس منطقي مفحم، قائلا: إذا كان الله قادرا على إيجاد كل هذه المخلوقات من العدم، فمن باب أولى يقدر أن يعيد بعثها من جديد، فالذي يريد أن يعرف عملية الإحياء بعد الموت، فلينظر كيف خلقت أول مرة، فما الذي سمح بحدوث ذلك أول مرة، وما الذي يمنع من تكراره مرة ثانية؟ وهذا قياس منطقي يحمل في طياته محاجة مفحمة لمنكري البعث بعد الموت، وهذا من الأغراض التربوية، التي تدفع العقول إلى إدراك واكتشاف الحقائق الكبيرة في هذا الكون.

الشاهد العاشر: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ، وَقَالُوا أَهَلُّنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ الزخرف 57-58. في المثل بيان أن الله ضرب المثل لمخلوق عيسى ابن مريم، بمعجزة دون أب بيولوجي، دليلا وبرهانا على قوته وألوهيته وربوبيته، ومع ذلك فإن كفار قريش يصدون عن المثل وعن الدليل، ومن ثم عدم الاعتراف ببطلان آلهتهم المزيفة، وذلك الرفض نابع عن الجدل الأعمى عن الحجة والبرهان، وما فعلوا ذلك إلا لكونهم يحبون الخصومة في النقاش والجدل، ويغضون عيونهم عن الحق بعدما ظهر لهم، ويصرون على الجهل والكفر بالجدل المخادع والنقاش الفارغ. فالأمثال القرآنية أدلة وحجج وبراهين تنير العقل والتفكير، وتقنع المعاندين والجاحدين، لكن أكثر هؤلاء يركبون أهواءهم ويغلقون عقولهم استكبارا وجحودا وجدلا عقيما وإبطالا للحق وكفرانا بالهداية، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ الروم 58. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ الكهف 54. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ الإسراء 89. إن الأمثال القرآنية غرضها إقامة الحجة وإقناع المخاطبين وتربيتهم على التفكير السليم والمنطقي، وقد زودهم الله بعقل يُبيح لهم ما لم يتح لغيرهم من الحيوانات والمخلوقات.

2. 2 استشارة التفكير بأسلوب الاستفهام

كشفت التحليل عن الأمثال كذلك أن من استشارة العمليات العقلية الدافعة إلى التفكير والتأمل، طرح السؤال واستخدام الأسلوب الاستفهامي الحواري في الأمثال القرآنية، فقد وردت العديد من الأمثال القرآنية بصيغة الاستفهام، وهو في القرآن أسلوب رائع، كما أنه أحد أبلغ الأساليب اللغوية في إيصال المعاني للمخاطبين. قال ابن تيمية: كثير من الأمثال جاءت على شكل الاستفهام الإنكاري، الذي يدل على الذم والنهي (ابن تيمية، 1978، 14 / 63). ويرى علماء البلاغة أن الاستفهام يفيد في تنبيه السامع، حتى يرجع إلى نفسه فيحجل ويرتدع ويستبين الجواب....، ومن الاستفهام ما يأتي للإفحام والرد، وآخر يهدف

إلى النفي والتوبيخ والاستغراب والتعجب والإنكار، كما يأتي للتزديد بين أمرين في ظاهر القول، وهو في الحقيقة ليس تسوية بين أمرين في الحكم والنتيجة، والمعقول يثبت أحدهم وينقض الآخر، بدليل من العقل والحس، والاستفهام يدفع بالمخاطب إلى الحكم الصحيح، ويثير فيه التنبيه إلى الحقائق في غير عوج بل بطريق مستقيم (أبو زهرة، 1977، 212).

يقول محمد أبو زهرة: الاستفهام القرآني بأسلوبه ومنهجه، من أجود الطرق التعليمية إثارة للانتباه إلى ما يوجه المتعلمين إلى العلم، فكان استفهام القرآن موضحاً أقوم المسالك للتنبيه إلى الحقائق، وإثارة الأفهام إليها وتفتيح الذهن لتدخل عليه المعاني والحقائق العلمية (أبو زهرة، 1977، 232). وتؤكد بعض الدراسات القديمة والحديثة على أن الاستفهام جزء من الأسلوب الحوارى المستخدم بكثرة في القرآن، وأوضح صورته أن يرد سؤال من الحق تعالى يليه جواب، فتكون غايته لفت الأنظار إلى أمر هام ثم يشرح هذا الأمر، والاستفهام خطاب يعتمد على إثارة عواطف وانفعالات وجدانية، تترك أثراً فعالاً في الانقياد للسلوك الطيب والعمل الصالح، كالخوف والأمل والرغبة والرغبة (النحلاوي، 1987، 214). فالاستفهام إذن مؤداه الحث على النظر والاستدلال وتوجيه الأنظار إلى الكون وما فيه وما يجري بين الناس (أبو زهرة، 1977، 212).

والاستجواب الحوارى الراسخ في القرآن يضاويه أسلوب الاستجواب في المدرسة الحديثة، ويزيد عليه، فالاستجواب المدرسى مقصور على أمور عادية علمية خاصة، أما الحوار القرآني أو النبوي فهو يتحدى عقول السامعين وأفكارهم بأمر جديدة أو غامضة، ثم يشرحها لهم، ويوجههم إلى الأخذ بخيرها وترك شرها، فغاياته وجدانية سلوكية بحيث يُكره إلى السامع أو المخاطب الشر ويُحبب إليه الخير، ويثير عواطفه وانفعالاته في سبيل تحقيق سلوك طيب والابتعاد عن سلوك شرير (أبو زهرة، 1977، 214).

● بعض الشواهد القرآنية على هذا الغرض التربوي:

وهي كلها شواهد استفهامية تثير التفكير وتلفت إلى الانتباه، وتحقق الغرض التربوي في شحذ ذهن المتعلمين بتلك الأسئلة التي ضمنها الله تعالى أمثاله.

الشاهد الأول: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مَيْتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام 122.

الشاهد الثاني: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الرعد 19.

الشاهد الثالث: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا، أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفرقان 43-44.

الشاهد الرابع: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ، كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ المدثر 49-50.

الشاهد الخامس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَبُوا وَلَا يَعْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَحِبِّهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ الحجرات 12.

الشاهد السادس: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ النحل 75.

الشاهد السابع: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ إبراهيم 24.

الشاهد الثامن: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ ب...﴾ الزمر 29.

الشاهد التاسع: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الروم 28.

من أهم العمليات العقلية التي يستثيرها المثل القرآني، غرض تربوي يستغرق كل الأمثال، وهو القياس، ويُعد من العمليات العقلية المتقدمة. ورد في لسان العرب أن قياس الشيء يعني تقديره على مثاله، ويُعرف علماء الأصول القياس بأنه أخذ حكم الفرع من الأصل، أو إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه، للاشتراك بينهما في علة الحكم، ويُقصد بالقياس باعتباره عملية عقلية مقارنة موقف أو شيء بموقف معلوم يمثله في جانب أو أكثر، أو محاولة فهمه في ضوء مبدأ أو قاعدة عامة تنطبق عليه، ويُسمى في حال الأمثال القرآنية قياس التماثل (عبد الله، 1996، 79 – 80).

يقول النحلاوي: الأمثال القرآنية تُفيد في تربية الإنسان على القياس المنطقي السليم، فمعظم الأمثال تنطوي على قياس تُذكر مقدماته، ويُطلب من العقل أن يتوصل إلى النتيجة، التي يصرح بها في كثير من الأحيان، بل يشير إليها ويترك للعقل معرفتها (النحلاوي، 1987، 252 – 253). وأكد ابن تيمية في مجموع الفتاوى: أن كل أمثال القرآن مبنية على القياس، فالمثل هو تقدير الشيء على الشيء... والقياس هو تقدير الشيء على الشيء، وكلاهما واحد عند السلف الصالح، وهو قياس فرع على أصل موجود، وفي القرآن بضع وأربعون مثلاً (الأمثال القياسية فقط) وهي كلها تحتاج إلى نظر وتفكر لفهم القياس التمثيلي، الذي يراد به تأليف المعاني في العقول... وذلك هو البيان والحجة (ابن تيمية، 1978، 15 / 60).

إن كثيراً من الأمثال القرآنية قياسات يأمرنا الله بتدبرها للإيمان به وبغيرها من المعتقدات، وأخرى للتوجيه السلوكي، لذلك استدل العلماء في الفقه على حجية الأخذ بالقياس في أصول الفقه لتقرير المسائل الفقهية، فإذا كان الله يأمرنا أن نأخذ بالقياس في المعتقدات، فمن باب أولى الأخذ بالقياس في المسائل الفقهية الصغرى، فالأمثال القرآنية كلها أصول قياس (ابن عثيمين، 2002، 64). قال ابن القيم: ضرب الأمثال وصرفها في الأنواع المختلفة كلها أقيسة عقلية، يُنبه بها عباده على أن حكم الشيء هو حكم مثله، فإن الأمثال كلها قياسات عقلية (الجبوع، 2003، 1 / 98).

● بعض الشواهد من الأمثال على هذا الغرض التربوي.

الشاهد الأول: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ آل عمران 59. يخاطب الله بهذا المثل النصارى الذين يؤهون المسيح، لكونه وُلد من غير أب بيولوجي، ولدحض هذا الزعم، فإن الله يطلب منهم أن يُجروا قياساً على خلق آدم، الذي وُلد من غير أب ولا أم، فإن كان المسيح إلهاً بزعمهم فماذا يكون إذن آدم، الذي وُلد بلا أب ولا أم؟، ومعجزة ميلاده أعظم من معجزة ميلاد المسيح، فهل سيكون آدم إلهاً أعظم من المسيح؟، إنه قياس يدعو النصارى إلى التأمل في معتقدتهم الباطل، وكل من يقيس من النصارى بمنطق على خلق آدم يكتشف زيف معتقده في المسيح.

الشاهد الثاني: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُّوْا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِيسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ الممتحنة 13. في هذا المثل يربي الله عباده المؤمنين وبنهاهم عن موالاة الكافرين، طمعا في إيمانهم، لأن الله يعلم أنهم لن يؤمنوا، لما أشبعوا من الكفر في قلوبهم واستكباراً، وفي المثل أمر بالقياس، فإنه من اليأس إيمان أولئك الكفار كياس (الكفار)، وهم هنا بمعنى الذين يدفنون الموتى، من قيام أولئك الموتى من قبورهم، فكما لا يخرج الأموات من قبورهم أحياء كذلك لن يؤمن أولئك الكفار، فالقياس هنا معبر عن حقيقة مطلقة ولا مجال لعباد الله أن تسوقهم العواطف.

الشاهد الثالث: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ هود 89. ومنه قول الله كذلك في المثل التالي: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ، فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَقُوا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ يونس 101 – 102. في هذين المثلين دعوة للقياس المنطقي والتفكير التأملي الدافع للاعتبار، فإن الله يدعو على لسان رسوله – عليه الصلاة والسلام – قريشا أن يقيسوا حالهم بحال من سبقهم، من قوم هود وصالح ونوح ولوط، الذين رفضوا إنذار الله ودعوته فأصابهم

عقابه، وها هي اليوم قريش تقنفي أثر من دمره الله على كفره بالأمس، والقياس بين الحالين، قد يودي بالمتفكر إلى الخوف من هذا الترهيب الرباني ويعتبر بتلك النماذج الهالكة من الأقسام السابقة، فحري به تغيير حاله قبل فوات أوانه.

الشاهد الرابع: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ...﴾ الزمر 29. في المثل تقرير لعقيدة التوحيد ونبذ للشرك، بتقديمه نموذجين من الناس وأمره بالقياس بينهما، وقد جاء المثل بصيغة استفهامية تثير العقل ليجيب الإجابة المعقولة والصحيحة، وهذا المثل قياس بين عبد يملكه سيدان متخصصان، هذا يأمره بشيء والآخر بعكسه، فليتصور كيف سيكون تذبذب العبد المسكين بين إرضاء سيده، وفي المقابل عبد مُلك لسيد واحد مطيع له، فهل يستويان مثلاً؟، لا شك أنهما لا يستويان، كذلك من يشرك بالله أكثر من إله باطل، وهذا المثل من أبلغ أنواع التربية والتعليم والتوجيه.

2. 4 استشارة التفكير بالتذكير

كما كشفت الدراسة أن من العمليات العقلية التي تستثيرها الأمثال القرآنية "التذكر"، وهي إحدى العمليات العقلية الأساسية، التي أكد القرآن الكريم على أهميتها، إذ كرر فعل "ذكر" ومشتقاته في الآيات القرآنية أكثر من 275 مرة، كما أن القرآن ذم النسيان، فمن طبيعة الإنسان قابليته للنسيان، ولكن القرآن أوضح بجلاء بأن الإنسان قادر على عملية التذكر (عبد الله، 1996، 71). والإنسان مُطالب في القرآن أن يتذكر خالقه، ويتذكر نعم الله عليه، كما أن عليه أن يتذكر ما هو مطلوب منه في هذه الحياة الدنيا، كما يجب عليه أن يتذكر ما حاق بالسابقين من ويل ووبال جراء نسيانهم لخالقهم، وليس معنى التذكر في القرآن استرجاع المعلومات السابقة فحسب، بل التذكر يعني الفهم الذي يؤدي صاحبه إلى مزيد من الطاعة والتقرب إلى الله.

والأمثال القرآنية محطات عبر المصحف الكريم، تذكر الناسي أو المتناسي كلما مرّ عليها، والإنسان تعثره عوامل النسيان الكثيرة من الشهوات والأهواء مما يوجب عليه أن يستذكر باستمرار، وأهم ما في ذلك تذكر العبد أن له خالقا خلقه سيحاسبه عما اقترفته يداه. والمثل القرآني من أكثر الوسائل التربوية التي تُثبت الذاكرة لدى المستمع، فالمثل يعمل على ترسيخ الأشياء والأفكار في الأذهان، وإذا غلب على الإنسان نسيان القضية، التي يُراد تثبيتها، فإن المثل الذي قُدمت به تلك القضية تبقيا شاحصة في ذاكرته، متقدة ومستعصية على النسيان، وتعيدها إلى الذهن مجرد مثول المثل أمام عينيه (عبد الله، 1996، 72).

وقد أجمع علماء التفسير والتربية على أن الحقائق إذا قُدمت من خلال الأمثال تكون من أجل التذكير، كما أنها تفيد في تثبيت تلك الحقائق في الذهن، لاستعانة الذهن فيها بالحواس، كما ذهب إلى ذلك العلامة العز بن عبد السلام والسيوطي وغيرهما. ويؤكد الغامدي في دراسته عن الأمثال القرآنية: أن من فوائد الأمثال تثبيت المعلومة وحفظ الذاكرة، فإن الحقائق المجردة ليس بالضرورة أن تُحفظ في القلوب وتحفر في الأذهان، لكنها عندما يتنوع عرضها، ومنه التنوع بضرب المثل لا شك أنها تبقى في الذهن أكثر، لأن التمثيل هو تشبيه، أي أن هناك صورة أخرى، وكثيرا ما يثبت في الذاكرة المثل أو الصورة... لذلك فالمثل المحسوس للشيء غير المحسوس يذكر دائما صاحبه، حتى وإن نسي الشيء غير المحسوس، فالمثل يُكون لدى الإنسان صورة، والصورة غالبا راسخة في الذهن وحاضرة في الذاكرة، وهذا من أهم الفوائد التربوية للأمثال وضربها (الغامدي، 1417 هـ، 7). جاء في موسوعة Urantia: إن الأمثال لها ميزة هامة، وهي أنها تعيد إلى الذاكرة الأمور وتثبت فيها الأشياء التي يتعلمها الناس، خاصة في حال مواجهة نفس الظروف في وقت آخر (Urantia, 1994, p1693). وكل الأمثال القرآنية دليل على تنشيطها لعملية التذكر، وتصلح أن تثبت المعلومات والحقائق، سواء كانت في العقائد أو السلوكيات أو غيرها، مما يريد الله أن يبقى راسخا في أذهان عباده ويتذكروه باستمرار.

● بعض الشواهد من الأمثال على هذا الغرض التربوي.

الشاهد الأول: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ، وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ...﴾ يس 77-80. في المثل تذكير للملحد الذي يتناسى كيف خلُق، ومن الذي خلقه، ومن سيعيده إلى الحياة بعد موته، فيذكره الله بخلقه له وأنه يحييه من الموت، كما خلقه أول مرة وكان عدما، ويصرح الله في هذا المثل أن هذا الملحد نسي خلقه، لذا ضرب له المثل حتى يذكره فتقوم عليه الحجة.

الشاهد الثاني: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، فُرَاتْنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الزمر 27-28. في الآية بيان لغرض ضرب كل أنواع الأمثال المصرفة في القرآن، وهو التذكير المنفصي إلى التقوى.

الشاهد الثالث: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ هود 24. بعد ضرب المثل يخاطب الله كفار قريش ويسألهم عن سبب تناسيهم حقائق التوحيد، فهل أنتم تذكرون أم أنكم تتعمدون النسيان؟، لكن هيهات.

الشاهد الرابع: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إبراهيم 24-25. بعد ضرب مثل الكلمة الطيبة وتشبيهاها بالشجرة الطيبة، يبين الله أنه يضرب هذا النوع من الأمثال وغيرها للناس، حتى يذكروا نعم الله وخالقها فيعبدهوا ولا يشركوا به شيئا.

الشاهد الخامس: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ المدثر 31. يقول الكفار والذين في قلوبهم مرض ما فائدة الأمثال وما الغرض من ضربها؟ فيأثم الجواب سريعا من الله، إنها ذكري للبشر، الذين يتناسون ما لا يليق نسيانه، إمعانا في الإعذار وإقامة الحجة على كفرهم.

IV. خلاصة عامة

كشفت الدراسة التحليلية الكيفية لحتوى الأمثال القرآنية أن الله تعالى لم يضرب تلك الأمثال عبثا وبلا هدف، وإنما الأمثال القرآنية بنية متكاملة من المفاهيم المتناسقة التي وضعت لتحقيق أهداف عدة، ومنها الأهداف والأغراض التربوية والتعليمية، من أجل إحداث التغيير المنشود في الإنسان والذي سيسعده في الدنيا والآخرة، إضافة إلى إرشاده وتوجيهه إلى السبيل لتحقيق تلك السعادة. بينت الدراسة أن من الأغراض التربوية الأساسية من ضرب الأمثال القرآنية: استثارة العمليات العقلية المختلفة في ذهن المتعلمين والمخاطبين بالقرآن، والتي تساعدهم على التعلم والتقدم المعرفي في مسارهم العام، ومن تلك العمليات العقلية البسيطة والمتقدمة: ضرب المثل لتقريب المعنى للمتعلم، وذلك بإبراز صورة المعقول البعيد عن الحس في صورة المحسوس القريب، وتبسيط المفاهيم الغيبية ووضع التشبيهات التي تقرب المفاهيم المجردة إلى الإدراك الحسي، ومن ثم تصل إلى عملية الإدراك العقلي المتقدمة لدى المخاطبين والمتعلمين. وضرب المثل لإقناع المتعلم واستثارة تفكيره: ويندرج تحته العمليات التالية: استثارة التفكير بالتأمل، استثارة التفكير بأسلوب الاستفهام، استثارة التفكير بالقياس، استثارة التفكير بالتذكير.

ونخلص بشكل عام إلى أن التربية تُعنى بالإنسان، والله خالق الإنسان، يعلم نفسه وقدراته واستعداداته، فهو الذي ركبها فيه بمقدار، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الملك 14، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَمْ يَرْتَابُ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ الإسراء 17. وإن الأمثال القرآنية ذات مدلولات تربوية عميقة التأثير عظيمة الفائدة، تتضافر مع غيرها من وسائل التربية القرآنية كالقصة والقدوة والحوار وأساليب الإقناع والتعليم وغيرها في تكوين البنية التحتية للنظرية التربوية الإسلامية الرائدة، في أصولها وأسسها وفلسفتها ومراميها وأهدافها وأساليبها ووسائلها وخصائصها التربوية التي تستدعي الإبراز والإشادة بعلمية وموضوعية.

٧. المراجع

1. ابن تيمية، أحمد، (1978): مجموع الفتاوى، منشورات إدارات البحوث العلمية والدعوة والإرشاد، ط1، الرياض.
2. ابن الشريف، محمود، (ب ت): الأمثال في القرآن، دار المعارف، ط3، القاهرة.
3. ابن عثيمين، محمد صالح، (2002): تفسير القرآن الكريم، دار ابن الجوزي، ط1، الرياض.
4. أبو زهرة، محمد، (1977): القرآن المعجزة الكبرى، دار الفكر العربي، القاهرة.
5. أبو عرقوب، إبراهيم، (1993): الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، دار مجدلاوي، ط1، عمان.
6. أبو النيل، محمد عبد السلام، (1995): الأمثال في القرآن الكريم، مجلة الشريعة الإسلامية المصرية، العدد 25.
7. الأحمدى، فهد عامر، (2005): أين يكمن الإعجاز في بيت العنكبوت؟، صحيفة الرياض السعودية، العدد 13581.
8. بوغان، رضوان، (2002): الفكر التربوي عند بدر الدين ابن جماعة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر.
9. التل، شادية، (2005): علم النفس التربوي في الإسلام، دار الفنائس، ط1، عمان.
10. الجربوع، عبد الله، (2003): الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، منشورات الجامعة الإسلامية، ط1، المدينة.
11. الجوزية، ابن القيم، (ب ت): مفتاح دار السعادة، منشورات رئاسة إدارات البحوث العلمية والدعوة والإرشاد، الرياض.
12. الخليبي، أحمد عبد العزيز، (1998): ثقافة الطفل المسلم مفهومها وأسس بنائها، دار الفضيلة، ط1، الرياض.
13. الخطيب، سعيد محمد، (2000): دراسة في الأمثال، دار المعرفة، ط1، بيروت.
14. الزركشي، بدر الدين بن عبد الله، (1980): البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط3، بيروت.
15. الزندانى، عبد المجيد، (1989): محاضرات في الإعجاز القرآني، أشرطة فيديو.
16. سبع، توفيق محمد، (1983): واقعية المنهج القرآني، منشورات مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة.
17. السيوطي، جلال الدين، (2003): الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت.
18. عبد الله، عبد الرحمان صالح، (1996): دراسات في الفكر التربوي الإسلامي، دار البشير، ط1، عمان.
19. عبد الدائم، عبد الله، (1986): التربية عبر التاريخ...، دار العلم للملايين، ط5، بيروت.
20. عبود، عبد الغني والعال، حسن إبراهيم، (1990): التربية الإسلامية وتحديات العصر، دار الفكر، ط1، القاهرة.
21. علي، سعيد إسماعيل، (1992): الأصول الإسلامية للتربية، دار الفكر العربي، ط3، القاهرة.
22. الغامدي، سعيد بن ناصر، (1417): الأمثال فوائده وشواهد، مجلة آفاق السعودية.
23. القطان، مناع، (1999): مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت.
24. قطب، سيد، (1983): التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط8، بيروت.
25. المشوخي، عبد الله، (1982): موقف الإسلام والكنيسة من العلم، مكتبة المنار، ط1، الزرقاء، الأردن.
26. المزيدي، منصور، (2005): الأسلوب القرآني في دعوة تحريك الفكر، balagh.com/mosoa/quran/quran.
27. الميداني، عبد الرحمان حبنكة، (1980): الأمثال القرآنية، دراسة وتحليل، دار القلم، ط1، دمشق.
28. الميداني، عبد الرحمان حبنكة، (1983): أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، دار البشائر، ط1، عمان.
29. النحلاوي، عبد الرحمان، (1987): أصول التربية الإسلامية وأساليبها، دار الفكر، ط3، دمشق.
30. Le Lay, Yann, (1997): Savoir rédiger, éditions Larousse, paris.
31. Marchand, Frank, (1999): Dictionnaire du professeur des écoles, éditions guide Vuibert, paris.
32. Rondal, J-A et Hotyat, F, (1985): Psychologie de l'enfant et de l'adolescent, collection Education 2000, éditions Labor, Bruxelles.

Urantia, (1994): complément sur les paraboles, Urantia Foundation, Chicago, USA.